



في يوم بعيد، قبل وقت طويل، خرج رجلٌ من بلده ضعيفاً طريداً يسعى في إثره الطالبون. واشتد عليه الطلب فتواری في شَقِّ في رأس الجبل، لكنّ طالبيه وصلوا إلى حيث تواری وأوشكوا أن يكشفوه. وكان معه صاحب، فكأن صاحبه أشفق عليه منهم، فسكّن الرجلُ المؤمن رُوعه وثبّته بخطاب الواصل بربه؛ قال: لا تحزن، إن الله معنا.

لم تكن تلك الكلمات المؤمنة المطمئنة نهايةَ رحلة المعاناة والتضحيات، لقد كانت بدايتها فحسب. كانت الرحلة شاقة طويلة، مرّت فيها أوقاتٌ عصيبة بلغت فيها القلوبُ الحناجر، وأوقاتٌ اقترب فيها الناس من اليأس، ولكنها لم تنقُص غيرُ سنوات حتى عاد الرجل الطريد إلى بلده فاتحاً مظفراً، وحتى خفقت راياتُ جيوشه في أنحاء جزيرة العرب، ثم امتد نور رسالته حتى أضاء ما بين طنجة والصين.

صلى عليك الله يا رسول الله، لقد علمتنا معنى الثقة بالله ومعنى التوكل عليه واليقين بنصره، فهلاً وعينا الدرس وهلاً قبسنا منك الثقة والتوكل واليقين؟

* * *

فيمَ اليأس وفيمَ الإحباط يا عباد الله؟ ما الذي اختلف بين الأمس واليوم أو بين صباح هذا اليوم والمساء؟ كنا وحدنا وبقينا وحدنا، وكان الكل علينا وبقى الكل علينا، وكان أملنا بربنا واعتمادنا على مولانا وبقى أملنا بربنا واعتمادنا على مولانا.

إنما هي ریح الخريف هبّت لتسقط أوراق الشجر الذابلة، وقد سقطت وذرتّها الريح. إن نلتفت وراءنا اليوم فلن نرى أسوأ من الذي رآه أصحاب موسى إذ يسعون إلى البحر عَزْلاً ضَعْفَى وعدوهم يسعى وراءهم مدججاً بالعتاد والسلاح، فارتاع القوم وقالوا: إِنَّا لَمُدْرَكُونَ.

قال النبي الواصل بالله: كلا، إن معي ربي سيّدين. فأجابه الله ومن معه أجمعين، وأغرق جيش الأعداء فلم ينجُ منهم أحد، لم تنجُ إلا جثة الطاغية لتكون عبرة للظالمين وعلامةً على قدرة الله إلى آخر الزمان.

إنه اختبار. من ظن أن الناصر هو هذه الدولة من دول الأرض أو تلك فقد خاب ظنه وهو الليلة من القانطين، ومن علم أن قُوى الأرض أدواتٌ يحركها الله وأنه هو الناصر على التحقيق فلن يخيب أمله ولن تهتز ثقتة بالنصر، لأنه يعلم أن الله إذا صرف عنا أداة سخر لنا غيرها، وأنه لا يختار لنا إلا الخير.

ولعل من حكمته ورحمته بنا أن لا يضيع جهادنا الطويل فيُنضج ثمرته على أيدي الخصوم والأعداء. هذا الاختبار يقول لنا: لقد كانت يد القدرة الإلهية معكم - يا أهل سوريا - من يوم حطمت الصنم وهتفت "هي لله"، وسوف تبقى معكم وتقودكم إلى آخر الطريق. فلا تضلّوا السبيل، ولا تعلّقوا بغير الله القلوب، ولسوف ينصركم الله - ولو بعد حين - كما نصر رسوله وأوليائه بعد حين. يومئذ يفرح المؤمنون.

الزلازل السوري

المصادر: